

## بقايا الفصح

إذا أطلق اسم على مسمى ثم ذهب المسمى فإن الاسم يذهب بذهابه ، ومعنى هذا ان الاسم يصبح من الألفاظ التاريخية ، فهو يحفظ في معاجم اللغة كما تحفظ الآثار العتيقة في دورها ، فمن هذا القبيل طائفة من بقايا الفصح مستعملة في دمشق ولكنها لا تلبث ان يبطل استعمالها فتصبح من الألفاظ التاريخية ، وهذه الطائفة داخلة في لغة العمران .

فمن الألفاظ العامية المستعملة في دمشق لفظ : المخدع ، والعامية تلفظ هذه المادة بفتح الميم والذال ، ومعنى المخدع في لغة العامة : الغرفة فإذا قالوا : هذه الدار تشتمل على خمسة او ستة مخدع أرادوا بذلك الغرف ، فالمخدع لفظ عام لا يطلق على مكان بعينه ، مثل الفاظ المربع أو القاعة أو القصر في دور دمشق القديمة ، فان هذه الدور تحتوي على غرف لكل واحد منها اسم خاص ، انها تحتوي مثلاً على دهليز ومربع وايوان ، والعامية تسميه البيوان وقاعة وقصر وصاحة في وسطها بركة ماء والعامية تسميها : الديار ، وقبو ومشرقة ، وهي فصيحة مثلثة الراء ومعناها : موضع القعود في الشمس بالشتاء ، والعامية تلفظها بفتح الراء ، وغير ذلك من الغرف .

فلترجع الى أصل المخدع ، جاء في التاج ان المخدع كبير ومحكم انما هو الخزانة ، حكاه يعقوب عن الفراء ، قال : وأصله الضم ، الا انهم كسروه استقلالاً كما في الصحاح ، والمراد بالخزانة البيت الصغير يكون داخل البيت الكبير ، وقال سيبويه : لم يأت مفعلاً اسماً الاً المخدع وما سواه صفة .  
وأصل المخدع من الاخداع وهو الاخفاء ، وحكي في المخدع ايضاً الفتح عن ابي سليمان الغنوي ، واختلف في الفتح والكسر القناني وأبو شنبل ، ففتح أحدهما وكسر الآخر ، وبيت الأخطل :

صبا . قد كلفت من طول ما حبست في مخدع بين جنات وأنهار

يروى بالوجوه الثلاثة ، فالفتح يستدرك به على المصنف والجوهري والصاغاني ، فانهم لم يذكروه .

هذا ملخص ما جاء في التاج في مادة : المخدع ، والذي مهسنا في هذا كله ان المادة فصحة ، والعامية ترونها بفتح الميم ، ولا بأس بروايتها ، وقد جاءت هذه المادة في شعر الأخطل واستعملها جرير في شعره ، ذكر صاحب كتاب أنساب الأشراف ما يلي : قال المدائني : تواقف جرير والفرزدق بالمربد في ولاية القُبَاع ، فأرسل اليها عبّاداً فهدم دورهما وطلبهما ، فقال جرير :

فما في كتاب الله هدم بيوتنا كتهديم ماخور خيثٍ مداخله  
ففي مخدع منه نوار وسربها وفي مخدع أكياره ومراجله

فالمخدع في لغة العامة في دمشق قد دخل في طور عام ، بعد ان كان له معنى خاص ، كان يراد به البيت الصغير داخل البيت الكبير ، اما اليوم فليس له هذا التخصيص فهو مجرد البيت في الدار ، أي مجرد الغرفة ، وهذا اللفظ في دمشق لا يلبث أن يزول والسبب في ذلك ان هذه المادة خاصة بلغة العمران في دور دمشق القديمة ، اما في الدور الحديثة فلا تستعمل فيها الفاظ المخدع ولا المربع ولا القاعة ولا المشرفة ولا الليوان ولا الديار العاميتين ، فان هذه الدور الحديثة تشتمل مثلاً على خمس غرف او ست غرف ، فقد حلت الغرفة في العمران الحديث محلّ المخدع ، وبطل استعمال هذه المادة فيه واصبحت من الألفاظ التاريخية وكذلك : المربع ، فليس في الدور الحديثة مكان اسمه مربع ، وكذلك القاعة فليس في هذه الدور مكان اسمه القاعة ، ولكل من هذه الأسماء شروط خاصة ، فمن شرط القاعة في دور دمشق القديمة ان تكون فيها بركة ماء ، ولم أتوسع في توضيح هذه الشروط تفادياً من التطويل لأن الذي أرمي اليه انما هي الأطوار التي دخلت فيها مادة المخدع الفصيحة ، أفرأينا كم سنة عاشت هذه المادة في لغتنا العامية ، أفرأينا كيف أوشكت هذه المادة ان تختصر وتودع الحياة ، فهي الآن في النزاع او في شبه النزاع .

ومن هذا النوع لفظة : خوخة ، فهي داخلة في لغة العمران ، فالعامة في دمشق تقول : باب خوخة ، وضده ، باب مصراعين ، فالمصراعان فيه مستطيلان ، عموديان ، أما باب الخوخة فهو عبارة عن بابين مقوّسين ، الصغير منهما داخل الكبير . والوخوخة في اللغة كوة تؤدي الضوء الى البيت ، ومخترق ما بين كل دارين ما عليه باب ، وقد وردت هذه المادة في كتاب الأغاني في كلام صاحبه علي بن ابي طالب ، وخبر مقتل حجر بن عدي وخبر السعدي مع عمر بن ابي ربيعة : أما في دارك هذه حائط أقتحمه أو خوخة أخرج منها !

فالخوخة في هذا المقام مستعملة بحسب الوضع اللغوي ، أما في لغة العامة في دمشق فإنها تطلق كما ذكرت على شكل خاص من الأبواب في الدور القديمة . وقد جرى على هذه المادة ما جرى على اختها : المخدع فليس في العمران الحديث في دمشق باب اسمه : باب خوخة ، فهذه المادة لا تلبث ان تفارق الحياة فاذا اتسع العمران بطل استعمالها بالمرّة وبقيت محفوظة في معاجم اللغة ، تدل على مسمى ذهب فذهب الاسم بندهابه .

ولا بأس بالإشارة الى مادة نائلة لا تزال أقوى من المادتين السالفتين ، وهي : السفر ، لا تزال تقول في دمشق : حطوا السفر ، أو مدوا السفر ، ولكننا نجعل معنى السفر على حقيقتها ، فالسفر بالضم طعام المسافر ، ومنه سفره الجلد أطلقت في أول وضعها على طعام المسافر ، ثم ذهب هذا الاطلاق ، فأطلقت على الجلد الذي يوضع عليه هذا الطعام ، جاء في الأغاني في كلام صاحبه علي بن ابي طالب : وأخبره ما يلي : فلما نزلنا المنزل أظهر انه صائم ونام حتى تشاغت ثم أكل ما في سفرته ، وجاء أيضاً في الكتاب نفسه ، في كلام علي بن زيد بن عمرو ونسبه ما يلي : فقدم اليه رسول الله ﷺ سفره فيها لحم ، فأبى ان يأكل .

وهذه المادة في لغة العامة في دمشق تطلق على كل شيء يوضع عليه الطعام ، وتطلق على الطعام نفسه ، فاذا قالوا : حطوا السفر ، أرادوا : حطوا الأكل ، إلا ان العامة تلفظها بالصاد ، وكثيراً ما قلب السين والصاد في كلامها ،

فالذي اسمه : صادق يصبح : صادقاً ، وفي اللغة الفصيحة شيء من هذا النحو  
 فيقال : الصراط بالصاد ، والسين لفة فيه .  
 لم تمت السفارة في لغة العمران الحديث ، كما ماتت الخوخة وكلمات المخدع ،  
 فلا يزالون في بناء الدور الحديثة ، في دمشق يقولون : اوطاة السفارة ، فيضيفون  
 هذه المادة الى لفظة تركية : اوطاة ، ومعناها الغرفة .  
 واحب اخيراً ان ادون مادة عامية ولكني لا أحفظ نصاً لها في كتب  
 الأدب استشهد به هذه المادة هي : الزابوقة ، والزابوقة في لغة العامة تطلق  
 على أي مدخل ضيق كان ، في محلة أو حارة أو زقاق أو غير ذلك .  
 وفي اللغة الفصيحة : الزابوقه من البيت زاوبته أو شبه دغل في بيت يكون  
 فيه زوايا معوجة ، وانزبق في البيت : دخل .

سفيق جبري

— 300 —